

# الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

فهرس

- ٣ طه حسين ..... في الادب الأمريكي - ريشار - رايت .
- ٢٣ محمد رفعت ..... أسبانيا بعد الحرب .....
- ٣١ سليمان حزين ..... الهند بين الوحدة والتقسيم .....
- ٤٢ عبد الرحمن صدق ..... الليلة الأولى - في البحر (قصيدة)
- 
- ٤٦ هنرى برلين ..... ميجيل سرفانز .....
- ٦٠ بنت الشاطيء ..... بين الخرائب والأطلال .....
- ٦٨ حسين مؤنس ..... النفس الأندلسية في كتابات ثرفانتز ..
- 
- ٧٦ سلامه موسى ..... داروين والتفكير الجديد .....
- ٨٣ هيلديه زالوشر ..... رمز وزخرفة .....
- ٩١ جميل صدق الزهاوى . رسائل الزهاوى .....
- ١٠٦ عبد العزيز إسحاق .. الذوق الفني عند إدموند بيرك .....
- ١١١ فؤاد وصفي أبو الذهب . حيرة الفكر في معنى الحياة .....

من هنا وهناك ( على حافظ )

شهرية المسرح — شهرية السينما — من وراء البحار  
ظهر حديثاً — في مجلات الشرق — في مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصري

شركة مطبعة  
القاهرة

# الكتاب المصري



أكتوبر ١٩٤٧

ذو القعدة ١٣٦٦

مجلة ٧ - عدد ٢٥

السنة الثالثة

## في الأدب الأمريكي

ريتشارد رايت

أما فرنسا فقد سافرت إليها وأقمت فيها أشهر الصيف ، ولكنني على ذلك لا أعد هذه الإقامة إلا إلامة قصيرة . فقد كانت حياتي المادية أثناء هذه الأشهر في فرنسا ، ولكن حياتي المعنوية أو العقلية بعبارة أدق ، كانت بعيدة عنها أشد البعد . وأكاد أقطع بأني لأول مرة قد أطلت الإقامة في فرنسا دون أن أحييا فيها حياة كاملة . فلم أقرأ من الكتب الفرنسية إلا قليلا أقل مما أقرأ في القاهرة ، ولم أتعلم قراءة الصحف الفرنسية ، وإنما كنت أمر بها مرًا سريعًا ، كما أمر بالصحف العربية في القاهرة مرًا سريعًا ، أجتزئ بالعنوان في أكثر الأحيان عن قراءة ما بعده ، إلا ما كان من النظام الجديد الذي شرع للجزائر فقد أتتبعه في عناية خاصة .

ومصدر ذلك أن الانتاج الفرنسي الأدبي في هذا العام لم يغرنني ولم يستخفني من جهة ، وأني قد ذهبت إلى فرنسا هاربًا من القاهرة لأخلو فيها إلى طائفة من الكتب ليس بينها وبين الحياة الفرنسية سبب ، بل ليس بينها وبين الحياة الحديثة كلها سبب ، وإنما هي كتب تتصل بالحياة العربية القديمة . فلم أكد أبلغ فرنسا حتى خلوت إلى هذه الكتب ؛ فكنت أغرق فيها وجه النهار وآخره ، وكنت أرفه على نفسي إذا أقبل الليل بشئ من القراءة المريحة . وأرادت الظروف أن تكون هذه القراءة المريحة متصلة بأشياء لا تمس الحياة

الفرنسية من قريب ولا من بعيد ، وإنما هي قراءة تمس الآداب الأوربية غير الفرنسية ، أو تمس الآداب الأمريكية . وقد يكون من الحق أن أعترف بأنى قرأت كتاباً فرنسياً كثر الكلام عنه جدا في فرنسا ، وكاد النقاد الفرنسيون يجمعون على الإعجاب به ، ولكنه لم يعجبى ، وأكاد أقول إنى ضقت به أكثر مما ارتحت إليه ، وهو بعد هذا لا يمس الحياة الفرنسية في ظاهر الأمر ، وإنما يمس حياة إفريقية الشالية ، وهو كتاب « الطاعون » للكاتب الفرنسى المشهور ألبير كامو .

وأنا أعلم أن الكاتب أراد به إلى الرمز ؛ فهو يصف الطاعون الذى تخيل أنه ضرب بجرانه على مدينة وهران ، فقطع ما بينها وبين العالم من الأسباب ، واضطرها إلى حياة محصورة كثرت فيها الفتن والمحن والخطوب ، وصرحت فيها نفوس الناس عن مكنونها ، فظهر الضعف الذى ينتهى إلى التهلك ، وظهر القوة التى تنتهى إلى البطولة ، وظهر الاخلاص الذى ينتهى إلى الايثار ، وظهر الجبن الذى ينتهى إلى الأثرة المنكرة . وخلصت المدينة بعد لأى من هذا العناء البغيض ، واستأنفت حياة عرجاء تحاول أن تستقل وتستقيم .

وأنا أعلم أن الكاتب أراد أن يتخذ وهران وأهلها والطاعون رمزاً لفرنسا وأهلها والحرب ، أو رمزاً للأرض كلها والحرب ، وأنه إنما أراد أن يصور الانسانية حين تلم بها الخطوب الفادحة ، فتمحص من الناس من تمحص وتمحق منهم من تمحق .

ولست أدرى لم لم يعجبى هذا الكتاب مع أن المعنى الذى أراد إليه الكاتب قيم خطير عظيم الشأن . وأكبر الظن أن الأداء هو الذى لم يعجبى ، وأن الحوادث التى شهدناها فى الحرب الأخيرة كانت أعظم نكراً وأشد هولاً ، وأصدق تصويراً لقوة الانسان وضعفه ، ولا يثار الانسان وأثرته ، من هذا الكلام الذى لا يكاد يتجاوز فى وصفه وتصويره أيسر ما تكتبه الصحف حين تقص الأخبار . والمهم هو أن هذا الكتاب لم يشعرنى حين قرأته بأنى كنت أقرأ كتاباً رائعاً يصور الحياة الأوربية الرائعة أثناء الحرب تصويراً يلائمها فى الروعة ، وإنما أشعرنى بأنى كنت أقرأ كتاباً فاتراً يريد أن يصور أشياء لا يلائمها الفتور بجال من الأحوال .

لم أقرأ إذن كثيراً من الكتب الفرنسية أثناء إقامتى فى فرنسا ، وإنما قرأت

كتباً إيطالية وأمريكية وروسية ، وأعود فأقول إنى لم أكن أعمد إلى هذه القراءة إلا وقتاً قصيراً حين يقبل الليل وبعد أن ننصرف عن العشاء ونخرج للرياضة وقتاً يقصر أو يطول ، ثم نعود فنجتمع إلى قارىء منا يعيننا على انتظار النوم الذى لا يجب أن يطول انتظاره فى القرى وإن أحب أن يطول انتظاره فى المدن وينوع خاص فى باريس .

وقد عرفت أثناء هذه القراءة القصيرة كاتباً أمريكياً أسود كنت قد سمعت به فى باريس فى العام الماضى دون أن أقرأ له شيئاً . ثم قرأت له بعد عودتى إلى القاهرة فى مجلة «العصور الحديثة» التى يصدرها جان بول سارتر قصة قصيرة رضيت عنها كل الرضا . ثم أتيج لى أثناء هذا الصيف أن أقرأ له كتابين قد كثر عنهما الحديث فى فرنسا ، نشر أحدهما متفرقاً فى مجلة «العصور الحديثة» وعنوانه : « غلام أسود » *Black Boy* ونشر الآخر جملةً وعنوانه « ابن البلد » *Native Son* . وله كتاب ثالث قد نشر فى فرنسا ولم أقرأه بعد ، وأرجو أن تتاح لى قراءته قبل أن أعود ، وعنوانه : « أبناء العم توم » . وهذا الكاتب الأمريكى الأسود هو ريتشارد رايت الذى أريد أن أجعل منه موضوعاً لهذا الحديث .

لم يكد ريتشارد رايت يبلغ الأربعين من عمره وهو على ذلك يقرأ فى أوروبا وأمريكا جميعاً . وأرجو أن يقرأ فى الشرق العربى بعد حين ؛ فما أعرف أن الشرق العربى يحتاج إلى قراءة كما يحتاج إلى قراءة آثار ريتشارد رايت . أما كتابه الأول « غلام أسود » ، فليس إلا ترجمة لحياته منذ عرف نفسه إلى أن أتم السابعة عشرة من عمره . وهو قد عرف نفسه صبيّاً لا يكاد يميز الأشياء ، يعيش بين أب أسود وأم سوداء ، ويعيش معه أخ أصغر منه سناً . والحياة فى هذه الأسرة ضيقة ضئيلة ذليلة ، ثم لا تلبث أن تزداد ضيقاً وضآلة ودلاً . فقد هجر الأب زوجته وابنيه ، وعاش مع امرأة أخرى سوداء ، وترك هذه الأم البائسة تسعى على رزقها ورزق ابنها ، تجد فى ذلك ما شاء البؤس والذل وفساد النظام الاجتماعى واستعلاء البيض على السود أن تجد من الجهد والمشقة والعناء . وهى حين تسعى على رزقها ورزق ابنها تترك هذين الصبيين البائسين لأنفسهما أكثر النهار ، فهما يعيشان فى الشارع يخالطان أمثالها من أبناء السود البائسين ويشاركاهم فى كل ما يتعرضون له مما يفسد التربية وينحط بالأخلاق

إلى الدرك الأسفل ؛ فهم يعيشون عبثاً مردولاً . وهم يسرقون ويختلسون ، وهم يتعرضون لضروب من الاهانة والازدراء والتغريب والتضليل لا تطاق . وهذا الصبي ريتشارد رايت نفسه يحدثنا عن وقوفه أمام قهوة من القهوة الوضيعة التي يختلف إليها السود ليشربوا فيها شراباً بغيضاً ، ثم عن استدراج الكبار له حتى يدخل القهوة ، وعن عبثهم به حتى يشرب ما لا يلائم سنه ولا صحته ، وحتى يضطر إلى السكر قبل أن يتجاوز السادسة من عمره ، وحتى يتعلم منهم أبشع اللفظ وأقبح الفعل ، وهم يشجعونه على ذلك ليعبثوا به وليضحكوا من سخفه في القول والعمل حين يأخذ منه السكر مأخذه . والصبي يجب هذا النوع من الحياة لأنه وحيد ضعيف أولاً ، ولأنه جائع بعد ذلك ، ولأن العابثين بد يتيحون له شيئاً من طعام ويلهونه عن نفسه وعن جوعه وبؤسه بما يلقون في جوفه من شراب . والحياة تثقل على أمه فتسلمه إلى ملجأ من ملاجئ اليتامى ، تحاول أن تضمن له شيئاً من التربية والمراقبة والتعليم . ولكن الصبي لا يطبق الحياة في هذا الملجأ ؛ لأنه لا يطبق فراق أمه ، ولأنه ألف الحياة الفارغة المتسكعة فهو يفر من الملجأ ، وتضطر أمه إلى أن تمسكه في بيتها دون أن تجرد إلى ذلك سيلاً . وتعجز هذه المرأة آخر الأمر عن النهوض وحدها بهذا الثقل الثقيل فتنتقل بابنيها في مدن القسم الجنوبي من الولايات المتحدة ساعية على رزقها ورزقهما ما وسعها السعي ، فاذا لم تجد إلى الاحتمال سيلاً لجأت بابنيها البائسين إلى أسرتها الحقيرة الفقيرة فعاشت وعاشا بين أمها وأبيها وأختها المعلمة في مدارس السود . وتحاول أن ترسل الصبي إلى المدرسة التي نعلم فيها أختها ، ولكن الصبي لا يحب المدرسة ولا يجب حالته يضيق بالنظام ويضيق بظلم حالته له ، وما يزال يضيق بخالته وتضيق به حالته حتى يترك المدرسة ويعود إلى حياة التسكع والفراغ . ثم تلم العلة بأمه حتى تثقل ، ويرسل الفتى إلى أحد أخواله ليعيش في ظله . ولكن الأمور لا تستقيم له في هذا البيت الجديد ؛ لأنه حر مسرف في الحرية لا يجب أن يسمع ولا أن يطيع ، وإذا هو يعود إلى بيت الأسرة ليعيش بين أمه الربيضة المثقلة ، وجدته البغيضة المتهاككة على الدين ، وجده الساخط الذي انحاز إلى نفسه ولزم حجرته فلا تراه الأسرة إلا قليلاً . والصبي يثقل على نفسه ويثقل على أسرته ، والخطوب تتقاذفه والجوع يلح عليه ، وجدته تحاول أن تخضعه لشيء من النظام

فلا تستطيع ، وتحاول أن تميل به نحو الدين فلا تجد منه إلا إباء ونفورا . وهو على ذلك خال إلى نفسه عاكف عليها ، قد استقر في قلبه أن كل من حوله من الناس وكل ما حوله من الأشياء عدو له . وأشد ما يؤثر في نفسه الناشئة ما يرى من استعلاء البيض على السود وظلمهم لهم واستعبادهم إياهم والاستخفاف بأنهم وسلامتهم وحياتهم نفسها ؛ فليس أيسر على البيض من شتم الرجل الأسود ولكزه ووكزه وقتله لأيسر الأمور وأحقر الهنات . قد استقر في قلوب البيض أن السود لهم عدو خطر ضعيف ، فيجب أن يستذلوهم وأن يمسكهم في الفقر والجوع والهوان والحياة الخسيسة من كل نواحيها . واستقر في نفوس السود أن البيض لهم عدو قوى ، فيجب أن يكبروهم ويخافوهم ويرهبوا بأسهم ويتنحوا لهم عن الطريق ويخفضوا الأصوات إذا حدثوهم ، ثم لا يحدثوهم إلا بما يصور الخوف والاكبأر والاجلال . ولكن الصبي يرى هذا كله ويفهمه حتى الفهم ويشعر به أشد الشعور وأدقه دون أن تطمئن نفسه إلى شئ منه ؛ فهو لا يستطيع أن يؤمن بأن بيته وبين غيره من الناس فرقاً سواء أكانوا بيضاً أم سوداً . وهو من أجل ذلك يبغض الناس جميعاً ، ويعكف على نفسه حتى كأنه يعيش في عالم مقصور عليه . يبغض البيض لظلمهم وكبريائهم ، ويبغض السود لذلم واستخذائهم . وهو من أجل هذا يعيش عيشة منكرة حقاً : لا يطمئن إلى أهله ولا إلى رفاقه لأنهم سود مستذلون والذلة لا تجد إلى نفسه سيلاً ، ولا يطمئن إلى البيض لأنهم طغاة مستكبرون ، ولم تخضع نفسه للطغيان ولا للاستكبار . وهو من أجل ذلك ومن أجل إصراره على بغض النظام ومباعدة الدين قد فقد عطف أسرته جميعاً إلا عطف هذه الأم المريضة التي تنقل عليها العلة أحياناً وترفه عليها بين حين وحين .

وقد انتهى الأمر بالصبي إلى أن يسعى إلى المدرسة ويأخذ نفسه بنظامها في كثير جدا من المشقة والعناء . وما أسرع ما يتفوق على رفاقه السود ويمتاز منهم ! وما أسرع ما يجب الدرس ! ولكنه جائع عار وبأس يأئس ، فلا بد من أن يسعى على رزقه ورزق أمه ، ولا بد مع ذلك من أن يمضي في درسه . وهو من أجل ذلك يخدم البيض أول النهار وآخره ويختلف إلى المدرسة فيما بين ذلك . وخدمته للبيض لا تستقيم ؛ فهو لا يقبل الأوضاع المألوفة بينهم وبين السود ، وهو بطرد مرة ويترك العمل من تلقاء نفسه مرة أخرى . وهو على ذلك

يسعى على رزقه وتعليمه، ويشقى بهذا السعى حتى يتم المرحلة الأولى من مراحل التعليم. والعادة أن المبرز من التلاميذ يلقي خطبة يوم توزيع الاجازات، وهو المبرز في سنته تلك، فسيكون إليه إذن إلقاء الخطبة، وهو يعد خطبته، ولكن ناظر المدرسة يدعوه ذات يوم ويدفع إليه خطبة أعدها هو ليلقيها التلميذ الممتاز كشأنه مع التلاميذ جميعاً في كل عام، غير أن الغلام يرفض خطبة الناظر ويأبى إلا أن يلقى خطبته هو، والناظر دهش لهذا الالباء ثم ضيق به ثم ساخط عليه ثم منذر للغلام لأنه معرض مستقبله للخطر إن أصر على هذا الالباء. ورفاهه يلحون عليه في أن يفعل كما فعل المبرزون من قبله وكما سيفعل المبرزون من بعده، وأهله يلحون عليه كذلك، ولكنه يأبى ويستمسك بالالباء، ولا يعنيه أن يضيع مستقبله، ولا يعنيه أن يصرف عنه منصب التعليم في مدرسة من مدارس السود فقد ألقى خطبته هو إذن لاخطبة الناظر، وظفر بشئ قليل من التصفيق وصاحفه نفر قليل من رفاقه، ثم عاد إلى أهله وقد صرف عنه منصب التعليم. وليس له بد من أن يسعى على رزقه ومعونة أسرته، وهو مع ذلك طامع في أن يبلغ حظه من التعليم الجامعي. ولكن كيف السبيل إلى هذا التعليم؟

هو إذن مضطر إلى أن يستأنف خدمة البيض؛ فهو ينتقل من دار إلى دار ومن متجر إلى متجر، لا يتاح له الاستقرار إلا ريثما يفرض عليه القلق والاضطراب، حتى استيقن آخر الأمر أن لا مقام له في هذه البيئة التي يعيش فيها، وأنه مضطر إلى أن يتغرب ليخيا حياة ممكنة محتملة. ولكن كيف السبيل إلى التغرب وليس له حظ من مال؟ فهو يعمل كثيراً ويكسب قليلاً، وينفق على نفسه وعلى أسرته ما يكسب، ويجوع دائماً. لا سبيل له إلى أن يغترب إلا إذا سرق. وهو يرد هذا الخاطر عن نفسه رداً عفيفاً. ولكن هذا الخاطر يلح عليه إلحاحاً عفيفاً. ويزداد إلحاحه عليه كلما تعرض — وما أكثر ما كان يتعرض — للاهانة والعسف بأنيابه من البيض. وهو ينتهي آخر الأمر إلى أن يسرق: يختلس ممدساً من دار الجيران، ويختلس نقوداً من دار السينا التي كان يعمل فيها، ثم يأخذ القطار ذات صباح أو ذات مساء فيخرج من هذه المدينة التي يعيش فيها الظلم والذل جميعاً. ويصل إلى مدينة ممفيس ومعه شئ من مال قد أخفاه في منطقتة. وهو

يريد أن يعمل في هذه المدينة حتى يجد من المال ما يمكنه من أن يدعو أمه وأخاه ليلحقا به ، ثم يعمل بعد ذلك حتى يجمع من المال ما يمكنه من أن ينتقل معهما إلى شمال الولايات المتحدة حيث يستطيع السود أن يعيشوا دون أن يتعرضوا لما يتعرضون له في الجنوب من الذلة والهوان .

وقد أتىح له هذا العمل الذي كان يبتغيه ، وأتىح له كسب ملائم ، ولكنه يؤدي في سبيل ذلك العمل وهذا الكسب جهداً أي جهد ، ويلقى في سبيلهما عناء أي عناء ؛ فهو محقر منذ يصبح إلى أن يمسي ، وهو أقل شقاء بما يلقي من هذا الاحتقار منه بما يرى من اطمئنان أمثاله السود إلى هذا الاحتقار واتخاذ سبيلا إلى الكسب ، يتملقون البيض ويمكنهم من المبالغة في إذلالهم ليكسبوا قليلا من المال . وربما كان أشد ما أمضه وثقل عليه إسراف البيض في الاستهزاء بالسود وإغراء بعضهم ببعض حتى يقتتلوا أو يصطرعوا أبشع الاصطراع وهم ينظرون إليهم ويسخرون منهم ويلهون بهم . وقد تعرض هو لبعض ذلك ؛ فإزال سادته الذين كان يعمل عندهم يخوفونه زميلا له أسود ويخوفون منه هذا الزميل ويغرون أحدهما بصاحبه ، ولكنهما قاوما ما وسعتهما المقاومة ثم أذعنا آخر الأمر ؛ لأن زميله قبل أن يلاكه ويأخذ على ذلك أجراً خمسة دولارات . وقد حاول ريتشارد رايت أن يرفض هذه الملاكة ، ولكن زميله مازال به يرغبه في الدولارات ويرهبه بأسه ويخيل إليه أن الملاكة لن تكون إلا ظاهرة موهة حتى استجاب له ، ثم كانت الملاكة واجتمع السادة البيض لها كما يجتمع الذين يلعبون باختصام الديكة . ولم تكن الملاكة خيالية موهة ، وإنما كانت مرهقة مهلكة أشرفت بهما على الموت . وفي المصنع الذي كان ريتشارد رايت يعمل فيه كان يعمل إرلندي كاثوليكي

وكان رقيقاً بالسود وبرايت خاصة ، وبفضله استطاع رايت أن يستعير بعض القصص من مكتبة المدينة التي كانت وقفاً على البيض . فلم يكدهم يقرأ في هذه القصص حتى فتحت له آفاق جديدة لم يكن يقدرها ولا يفترض لها وجوداً ، وإذا هو يصرف إلى القراءة عن كل شيء إلا عن العمل الذي يكسب منه قوته وقوت أسرته ، ويستعين به على اقتصاد ما يتيح له السفر إلى الشمال . وهو يستكشف في هذه القراءة شيئين : أحدهما هذه الآفاق الجديدة التي كان يجهلها ، آفاق تصوير الحياة ونقدها وتحليلها ، وآفاق هذه الأنواع الكثيرة

المختلفة من الحياة التي يجيهاها الناس في أمريكا وفي أوروبا ، والتي يصورها ككتاب كثيرون أمريكيون وأوروبيون تنقل آثارهم أو يتحدث عنها فيما يقرأ من الكتب . والثاني هذه النفس التي كان يشقى بها والتي لم يستطع قط أن يذلها أو أن يخضعها للذل ، أو أن يتصور أنها أقل من نفوس البيض خطراً أو أهون منها شأنًا . استكشف إذن في قراءته هذه الناس ونفسه . ولم يكن يعدل رضاه عن هذا الاستكشاف إلا تكلفه للاقامة على حياته المألوفة حتى لا يفتن البيض إلى أن شيئاً من سيرته الظاهرة أو الخفية قد تغير ، وحتى لا يحولوا بينه وبين ما يسمو إليه من الهرب بنفسه إلى جو تستطيع أن تنمو فيه نموًا حراً ليس فيه عسف ولا اكراه . وقد أتيح له ذلك آخر الأمر ؛ فهو يختم كتابه الرائع بما كان يدور في رأسه من الخواطر حين كان القطار يمضي به نحو الشمال . ولم تكن هذه الخواطر تصور سخطاً ولا يأساً ولا جزعاً ، وإنما كانت تصور الرضا والأمل وحب الخير الذي يشمل السود والبيض جميعاً .

وقد لخصت لك هذا الكتاب تلخيصاً لا أقول إنه دقيق ، ولا أقول إنه مقارب ، ولكنه على ذلك يصور أمرين خطيرين ، أحدهما هذا الجهاد العنيف الذي جاهد ريتشارد رايت منذ صباه الأول ليقاوم هذه المؤثرات الهائلة التي أسدت على ملايين السود في أمريكا حياتهم واضطرتهم إلى ألوان من الذل والهوان ، أقل ما توصف به أنها لا تلائم كرامة الانسان ، وأنها تكذب هذا الغرور الذي يحمل كثيراً من أمم الغرب على أن تزهى بما أتيح لها من الرقي والتفوق والامتياز في حياة العقل والشعور . فليس من الحضارة في شيء وليس من رقي العقل والشعور في شيء أن يستعلى فريق من الناس على فريق فيستذلوهم ويعنفون بهم أكثر مما يعنفون بالحيوان الأعجمي والآلة المسخرة ، لا لشيء إلا لأنهم بيض ولأن خصومهم سود .

وهذه المؤثرات قد انتهت بالسود في أمريكا أو بكثرتهم الساحقة إلى نتائجها الطبيعية . طال عليهم الاستدلال فهم أذلاء ، وطال عليهم الاستعباد فهم يحيون حياة العبيد ، وهم من أجل ذلك يغرقون في الرذائل التي تقتضيها حياة الذل والحسف ؛ فهم يكذبون ويسرقون ويقارفون آثاماً لا تحصى ولا تقدر . وهم يخافون ، ويدفعهم الخوف النكر التصل إلى ضروب من الجبن وهوان النفس ودناءة السيرة لا تكاد تخطر لأحد منا على بال . وهم يتخذون هذه

الحياة المنكرة نظاماً يرضونه ويطمئنون إليه ويتنافسون فيه . فاذا شد منهم شاذ فامتنع على هذا النظام أو أظهر الامتناع عليه فهم ينكرونه ويقاومونه ، كما ينكره البيض ويقاومونه .

وقد استطاع ريتشارد رايت منذ صباه الأول أن يقاوم هذه المؤثرات ويثبت لهذه المقاومة على ما لقي في هذا الثبات من خطوب آذت نفسه وجسمه جميعاً . فهو لم يعرف الأمن ولا الرضا ولا اطمئنان القلب في يوم من أيام صباه ، كما أنه لم يعرف الشبع ولم يأمن غائلة الحر والبرد ولم يفلت من سحر الساحرين وعبث العابثين يوماً من أيام صباه أيضاً .

أما الأمر الثاني فهو هذه الغفلة التي يعيش فيها العالم المتحضر في الشرق والغرب بالقياس إلى هذه الدولة الضخمة الفخمة الهائلة التي تريد الآن أن تسود العالم وتوشك أن تبلغ ما تريد . فالناس في الشرق والغرب يرونها نموذج الحضارة ويتخذونها مثالا للرقى ، وهي مع ذلك ترى ملايين من الناس يسامون أشنع ما يسام الناس من ضروب الذل والخسف والعسف والهوان ، ثم لاتنكر ذلك ولاتغيره ، بل لاتحاول إنكار ذلك ولا تغييره محاولة مجدية . والأمريكيون البيض من أهل الولايات المتحدة قد هاجر آباؤهم من أوروبا فراراً بحريتهم من العسف والخسف والهوان . فالاضطهاد في الدين والرأى هو الذي دفع كثيراً من الأوربيين إلى أن يهجروا وطنهم القديم إلى العالم الجديد ليعيشوا فيه عيشة قوامها العزة والحرية والاحتفاظ بكرامة الانسان . فانظر إليهم كيف يحرزون هذه الخصال لأنفسهم ثم يظنون بها على غيرهم من الناس . وما أنكر وما ينكر أحد أن الأمريكيين قد ألغوا الرق الفردى وجاهدوا في سبيل إلغاءه ، وبلغوا من ذلك مع أوروبا ما حاولوا . ولكن من المضحك حقاً ، والشر يضحك في كثير من الأحيان وأبغض الشر ما يضحك — من المضحك حقاً أن يلغى بيع الانسان وشراؤه ثم يتاح لفريق من الناس أن يسوموا فريقاً آخر من الناس خطة ليست أقل شراً ولا نكراً من تعريضهم للبيع والشراء . فالأمريكي الأبيض لا يستطيع أن يشتري الأمريكي الأسود أو يبيعه ، ولكنه يستطيع أن يعرضه للجوع والبؤس والمرض ويفرض عليه حياة تضطره إلى اقتراف الجرائم المنكرة ، ويضربه متى شاء ، ويقتله إن شاء أيضاً . وأغرب من هذا كله أن في الأمريكيين البيض من أهل الولايات المتحدة طموحاً إلى الخير وسمواً إلى المثل العليا لا يتكلفون

ذلك ولا يتصنعونه ، وإنما تدفعهم إليه نفوسهم الساذجة ، فهم يدعون إلى الخير والبر والاحسان وإلى السلم والعافية وإلى التعاون والتضامن ، وهم لا يترددون في أن يجاهدوا في سبيل ذلك بنفوسهم وأموالهم ، ولكنهم بعد هذا كله ينامون ملء جفونهم ولا يؤرو نومهم الهانئ الهادئ علمهم بأن بضعة عشر مليوناً من السود الذين يشاركونهم في الانسانية والوطن والدين يسامون بينهم سوء العذاب . والأمريكيون البيض هم الذين أذاعوا في الناس أسطورة الحريات الأربع ، ولكنهم لم يستطعوا أو لم يريدوا إلى الآن أن يكفلوا بعض هذه الحريات الأربع لهؤلاء الملايين الذين يشاركونهم في الانسانية والوطن واللغة والدين . وإنه لمن المضحك حقاً أن يحاول الأمريكيون تأمين الناس في الشرق والغرب من العوز والخوف والظلم والعدوان ، ثم لا يحاولون تأمين هؤلاء الملايين الذين يقيمون بينهم من هذه الآفات التي يصبونها عليهم صبغاً حين يسفر النهار وحين يظلم الليل .

وخصلة أخرى ليست أقل روعة مما قدمنا يصورها هذا الكتاب أبرع تصوير وأروع ، وهي طموح هذا الصبي ، وقدرته على أن يحتفظ بهذا الطموح ، وقدرته على أن يزيد هذا الطموح ، وقدرته على أن يبلغ ما كان يطمح إليه من التفوق والامتياز ، لا بالقياس إلى أمثاله السود وحدهم بل بالقياس إلى هؤلاء البيض الذين حاولوا استرقاقه فلم يستطيعوا . على أن ما أتيح لريتشارد رايت من قهر ما قهر من المصاعب وتذليل ما ذلل من العقاب والتخلص من هذه الجرائم والآثام التي كانت تدعوه دعاء ملحماً ، لم يتح ولا يمكن أن يتاح لكثير من السود ولا لكثير من البيض إن أحاطت بهم ظروف كالتى تحيط بملايين السود الأمريكيين . ومن هنا تظهر الصلة القوية الرائعة بين الكتائين اللذين أحلهما في هذا الحديث . وأكد أثق بأن الكتاب الذى فرغت من تحليله يشبه أن يكون مدخلاً أو مقدمة للكتاب الآخر الذى أريد أن آخذ في تحليله .

فالكتاب الأول يصور لنا غلاماً قهر ظروف الحياة التى تحيط بالسود في أمريكا . والكتاب الثانى يصور لنا غلاماً قهرته هذه الظروف . فهى واحدة بالقياس إلى الغلامين ، ولكن أحدهما وهو ريتشارد رايت قد تداركته رحمة الله فأتاحت له النبوغ الذى استنقذه من الشر استنقاذاً ، على حين أن الغلام

الآخر وهو بيجر توماس لم تدركه رحمة الله ، وإنما خلت بينه وبين طبيعة الحياة المنكرة التي فرضت على السود الأمريكيين فالتهمه الشر التهاماً . ولست أدري أخطرت هذه الصلة لريتشارد رايت حين كتب هذين الكتاين أم لا ، ولكني أعلم بعد التجربة أن هذه الصلة موجودة محققة ليس في وجودها شك . فقد رأيت من قرأ الكتاب الثاني فضاق به ونبا عنه وكاد يلحقه بالقصص البوليسية ، فلما قرأ الكتاب الأول فهم الكتاب الثاني على وجهه ورده إلى مكانته الممتازة من الأدب الأمريكي الرفيع . ذلك أن حياة بيجر توماس توشك أن تكون هي الحياة التي صورها ريتشارد رايت لنفسه في كتاب « الغلام الأسود » . فيبجر توماس فتى قد قارب العشرين من عمره ، وهو يعيش أمه السوداء البلهاء أو التي توشك أن تكون بلهاء ومع أخ له أصغر منه سناً وأخت تختلف إلى مدرسة تتعلم فيها الخياطة ، والأربعة يعيشون في غرفة حقيرة متهاكة تروعهم فيها الجردان ترويعاً شديداً ، وهم يعيشون في هذه الغرفة الحقيرة مختلطين أشنع اختلاط وأبشعه ، حتى إن بعضهم ليضطرب إلى أن يدير وجهه إلى الحائط أو إلى النافذة ليستطيع بعضهم الآخر أن يلبس ثيابه . وهم يعيشون من الاحسان الذي يصيهم من جاعة من هذه الجماعات التي توزع الخير على البائسين . وهذا الفتى قد نشأ فيما يظهر نشأة مختلطة مفرقة تشبه نشأة ريتشارد رايت ، ولكنه لم يقاوم ظروف السود التي أحاطت به ولم يقهرها ، وإنما عرفها وأحس شرها وضاقت بها وخضع لها مع ذلك مع انكاره لها ؛ فهو يسرق ويكذب ويعتدى ، ويرى أن هذا كله شر ، ولكنه يرى أن هذا الشر لابد منه لأنه مظلوم ؛ فهو يسرق الظالمين ويخادعهم ويمكر بهم ويعتدى عليهم ، لا يرى بذلك بأساً بشرط أن يفلت من العقاب . وهو من أجل ذلك بارع في الحيلة ناهر في الكيد حتى يبلغ ما يريد . وهو قد جمع إلى هذه الخصال المنكرة خصالاً أخرى ليست أقل منها نكراً ؛ فهو متبطل متعطل محب للكسل مغرق في الأثرة عنيف بأمه وأخته أبغض العنف وأقبحه . ونحن نراه في أول القصة متردداً ، قد عرض عليه عمل يتيح له أن يكسب رزقه ورزق أسرته ، فهو لا يدري أيقبل هذا العمل فيصبح سائقاً لرجل من أغنياء البيض أم يرفض هذا العمل فيقطع رزقه ورزق أسرته وتكف الجماعة الخيرة عن معاونته بما ترزقه في كل أسبوع . وهو في أثناء هذا التردد ينازع

نفسه وينازع جامعة من رفاقه إلى اقرار جريمة من هذه الجرائم التي تعودوا أن يفتروها ، جريمة السطو على رجل من التجار المتوسطين حين يخلو الشارع من المارة وينفرد هذا الرجل في متجره إذا كانت الساعة الثالثة بعد الظهر . وهؤلاء الفتية قد دبروا جريمتهم واستعدوا لها وكادوا يقدمون عليها ، ولكنهم مشفقون من أن يؤخذوا ، فنفسهم تقدم لتحمج ثم تحجم لتقدم ، ثم يكون بينهم شيء من الاختلاف فلا تقترف الجريمة ، وينظر الفتى فإذا النهار قد تقدم ، وإذا المساء قد أقبل ، وإذا الموعد قد أرف لقاء هذا الفتى الأبيض الذي يريد أن يتخذه لسيارته سائقاً . وهو يسعى إلى دار هذا الفتى ، ولا يكاد الباب يفتح له وتلقاه الخادم وتقدمه إلى سيدها حتى تثور في قلبه عواطف مختلفة أشد الاختلاف ؛ فهو مبغض أشد البغض لهذا الغنى الأبيض ، محتاج أشد الحاجة للعمل عنده . لو أطاع نفسه لهجم على هذا الرجل فاستلبه الحياة استلاباً ، ولكنه لا يطيع نفسه وإنما يطيع حاجته إلى العمل وفقره إلى ما يقم أوده وأود هؤلاء الثلاثة الذين خلفهم وراه والذين لا يجدون ما يفتقون . وهو يسعى خلف هذا الرجل الذي يقوده إلى مكتبه ، ولكنه يلقي في طريقه صورة تروعه وتقع من نفسه موقعاً غريباً : امرأة جميلة عمياء قد لبست البياض وهي تسعى متحسسة من طريقها تصاحب الجدار حتى لا تضع رجلها في غير موضعها . ويراه صاحب الدار فيرفق بها أشد الرفق ، فهي إذن زوجه وهي سيده الدار . ويبلغ الفتى مكتب هذا الرجل الغنى ويأخذ مجلسه ويسمع لسيدته الجديد ، فإذا هو يتحدث إليه حديثاً رقيقاً عذباً فيه كثير من العطف ، وإذا هو يعده وعوداً مغرية فسيقدم إليه أجراً حسناً ، وسيكون عمله حيناً يسيراً ، وسينزله من داره منزلاً وثيراً ، وسيعينه على أن يتم تعليمه في مدرسة من مدارس النساء . وهو يسمع هذا كله راضياً به ساخطاً عليه في وقت واحد : راضياً به لأنه محتاج إليه ، ساخطاً عليه لأنه يأتيه من غنى أبيض . وإنهما لفي ذلك إذ تدخل فتاة في الثامنة عشرة من عمرها رشيقة أنيقة عذبة الروح خفيفة الظل حلوة الحديث ، ولا تكاد ترى الفتى حتى تتحدث إليه في دعابة وتساله أمتصل هو باحدى النقابات ؟ وقد فهمنا أن هذه الفتاة الخفيفة الذكية الخرقاء مفتونة بحرية السود وبحرية الطبقة العاملة وبالذهب الشيوعي بوجه عام . وقد انصرفت الفتاة بعد أن ضربت موعداً لهذا الغلام على أن يؤديها في السيارة إلى الجامعة

حين يقبل الليل . وانصرف الفتى إلى المطبخ ، فلقبته الخادم فأطعمته وسقته وبينت له من أمر سادته أنهم قوم كرام أختيار لا ييطرهم الثراء الضخم ، ثم دلته على غرفته فاذا غرفة مترفة حقا . ولكن صورة الفتاة الحسناء قد ارتسمت في نفسه وأحاطت بها هالة من البغض المنكر . وهو على كل حال قد أخرج السيارة وانتظر الفتاة حتى أقبلت . ولم يكديخرج بها من الدار حتى وجهته وجهة غير وجهة الجامعة ، ثم أفضت إليه في رشاقة وظرف بشئ من سرها وطلبت إليه أن يكرم عليها أمرها ؛ فهي لا تذهب إلى الجامعة وإنما تذهب للقاء صديق . وقد وقفت السيارة أمام دار ضخمة ، ونزلت الفتاة فغابت لحظة ثم عادت ومعها فتى قدمته إلى الغلام فصافحه الفتى ، وأنكر الغلام الأسود هذه المصافحة من فتى أبيض وسيم ، ثم لم يلبث أن أنكر منهما كل شئ ، فهما يتحدثان إليه حديثاً قد برى من الكلفة . وما ينعهما من ذلك وهما شيوعيان لا يريان الفرق بين الألوان ولا يريان الفرق بين الطبقات ؟ وهما يريدان أن يتخذا من هذا الغلام الأسود رفيقاً لها لا يعنهما أن يكون أسود ولا أن يكون سائقاً لسيارة ، بل هما يألفانه من أجل هاتين الخصلتين . وهما يلحان عليه في أن يؤديهما إلى مطعم من مطاعم السود ، وأن يختار لهما من هذه المطاعم مطعاً أيقناً . والفتى يطبع ، ثم يدعوانه إلى أن يشاركهما في عشائهما ، فيأبى فيلحان فيجيب كارهاً . وقد جلس ثلاثتهم إلى المائدة فطعموا وشربوا وتحدثوا . والغلام الأسود منكر لهذا كله ، مستحى من هذا كله ، يكره أن يراه نظراؤه السود يؤاكل قوماً من الأغنياء البيض . ثم ينصرفون عن الطعام فيمضون للنزهة ويسرف الفتيان على أنفسهما وعلى الغلام الأسود في الشراب فيشربان ويسقيانه حتى يأخذ السكر منهم جميعاً . وقد تقدم الليل حتى كاد يبلغ ثلثيه ، وانصرف الفتى الأبيض قريباً من دار الفتاة بعد أن ودع صاحبته وساقاها شيئاً من الخمر على أنها شربة الوداع . وقد تواعد الفتيان على أن يلتقيا بعد ثلاثة أيام ؛ لأن الفتاة ستسافر من غد في أول النهار . وبلغ الغلام الأسود بالفتاة دارها ووقفت السيارة ، ولكن الفتاة لا تستطيع حراكاً قد أخذ السكر منها مأخذاً عظيماً . يعينها الغلام الأسود على أن تخرج من السيارة ، ولكنها لا تستطيع أن ترقى السلم ، فيعينها على ذلك ، ولكنها لا تستطيع أن تدخل الدار لأنها لا تستطيع أن تستقل على قدميها ، فيحملها الغلام الأسود بين ذراعيه

ويبلغ بها غرفتها بعد جهد شديد وقد وضعها على سريرها ، ولكنه ليس أقل منها سكرًا ، وقد رأى بينها وبين صاحبها الأبيض ما أثار في نفسه شيئًا من الاغراء . وهو متردد بهم وما يكاد يفعل ، والفتاة لا تعقل ولا تقاوم . ولكن باب الغرفة يفتح في رفق وتدخل منه هذه الصورة البيضاء الشاحبة التي تتقدم متحسسة من طريقها ، وقد امتلأ قلب الغلام الأسود خوفًا وفرقًا يشفق أن تنطق الفتاة فتنبيء بمكانه فتكون الكارثة . وأى كارثة أعظم من أن يؤخذ غلام أسود مع فتاة بيضاء في غرفة نومها ! وهنا يفقد الفتى صوابه وتستأثر به الغريزة غريزة الدفاع عن النفس ، فيأخذ وسادة ويضعها على فم الفتاة حتى لا تنطق ، وهو يضغط على الوسادة والفتاة تضغط بأظفارها على يده ، والأم تدعو ابنتها ، والغلام الأسود يلح في الضغط ، والأظافر تتراخي شيئًا فشيئًا ، ثم تنحى الوسادة وينتقل الفتى من مكانه في رفق ، والأم تدعو ابنتها وقد ألصق الغلام الأسود جسمه بالجدار والأم تسعى متحسسة من طريقها حتى تبلغ السرير فتمس ابنتها وتنحني عليها ، ثم تنصرف محزونة ترى أن ابنتها نائمة ، ولكنها تشم رائحة الخمر فيحزنها أن ابنتها قد أمعنت في السكر . وهي ترجع متحسسة من طريقها حتى تخرج وتغلق الباب من ورائها . ويدنو الفتى من السرير فلا يروعه إلا أن يرى أنه يخلو في هذه الغرفة إلى الموت .

فهؤلاء ثلاثة قد خلا بعضهم إلى بعض : غلام أسود ، وليل حالك ، وموت لا لون له . وقد أخذ عقل الفتى يثوب إليه شيئًا فشيئًا ويثوب معه الجزع والهلع وتثوب معهما الغريزة التي تريد أن تدافع عن نفسها وتفتح للعقل أبوابًا مختلفة من الحيل . فما عسى أن يصنع الفتى بهذه الفتاة الميتة ؟ أتركها ويمضى لوجهه ويلتمس الهرب ؟ ولكن هربه سيثبت عليه الاثم ولن تلبث الشرطة أن تتعبه وتأخذه . أتركها ويذهب إلى غرفته لينفق بقية الليل ؟ ولكن أهلها سيجدونها ميتة إذا أصبحوا وسيبحثون ويستقصون وسيكون هو أول من يوجه إليه السؤال . فكيف يجيب ؟ وما عسى أن يقول ؟ وهنا يذكر الفتى أنه سمع الفتاة تتحدث بسفرها مع الصبي ، وتتقدم إليه في أن يقوم مبكرًا لينزل حقيبتها وليحملها هي إلى القطار . فما هي إلا أن تخطر له هذه الخاطرة حتى تتفتح له أبواب من الحيل يرى بعضها واضحًا جليًا ويتراءى له بعضها الآخر في شيء من الغموض والخفاء . وينظر فاذا الحقيبة بين يديه قد

أعدت لتضع الفتاة فيها ما تحتاج إليه من ثياب ومتاع . وما هي إلا أن يعمد إلى جثة الفتاة فيضعها في الحقيبة ، ويحمل الحقيبة متكلفاً حملها ويسعى متمسكاً طريقه مترفقاً في سعيه حتى يبلغ أدنى الدار ، هناك حيث يقوم الموقد الضخم الذي لا تخمد ناره ليلاً ولا نهاراً والذي علمته الخادم كيف يغذيه بالفحم حتى لا تخمد ناره ولا تضعف وكيف يزيل منه الرماد إذا كثر فيه الرماد . وما هي إلا أن يفتح باب الموقد ويدفع فيه بجثة الفتاة ، ولكن الموقد لا يشتمل على الجسم كله فما زال الرأس خارجاً منه لا سبيل إلى رده إليه . وينظر الفتى فاذا فأس من هذه الفؤوس التي يقطع بها الخشب ، فما هي إلا أن يأخذها ويهوى بها إلى الرأس فيبينه من سائر الجسد ، ثم يضعه في المكان الملائم له من الموقد ثم يغلق باب الموقد وقد أسلم الجثة إلى نار لا تبقى ولا تذر ، ثم يرد أحد شطري الحقيبة إلى شطرها الآخر ، ثم ينصرف وقد أحكم رأيه إحكاماً . لقد أمرته الفتاة أن ينزل الحقيبة إلى أسفل الدار وأن يغدو مبكراً ليحملها إلى المحطة فلا عليه من أن ينفذ ما صدر إليه من أمر ، فاذا سئل عن الفتاة أجاب بأنه لا يعرف من أمرها أكثر من أنه عاد بها وبصاحبها إلى الدار وصعد معها ومع صاحبها إلى الغرفة فحمل الحقيبة وأنزها وأمر أن يترك السيارة أمام السلم لا يردها إلى مكانها . وقد أقبل مع الصبح فلقى الخادم وحمل الحقيبة ، وسئل فأجاب . ولم تنكر الخادم من جوابه شيئاً . فالفتاة نزقة طائشة كثيرة العبت والمجون وكل شيء منها ممكن . ويتقدم النهار حتى يوشك أن يبلغ آخره ، وإذا صاحبة الدار تسأله فيجيبها . يمثل ما أجاب به الخادم ، ويسأله صاحب الدار فيعيد عليه نفس الجواب . فاذا كان الغد تلقت الدار دعاء من المحطة إلى أخذ الحقيبة التي تركت في مستودع الودائع ، فعرفت الأسرة أن الفتاة لم تسافر ، وجعلت النظنون تذهب بها كل مذهب . وقد تبينت الأسرة أن الفتاة تركت كثيراً من الثياب التي كانت تريد أن تحملها في سفرها . ومهما يكن من شيء فقد استأثر الخوف بالأبوين جميعاً . ودعى السائق فتشدد في سؤاله الأب وتشدد معه بعض المتجسسين الذين يعملون له في شركاته الضخمة . وكان هذا التجسس يريد أن يتهم الفتى ، ولكن الأب يدافع عنه ، ويرى أنه فتي مستقيم . وإذن فلتلصق التهمة بهذا الشيوعي الشاب الذي أنفق مع الفتاة ليلته تلك . وقد أخذ هذا الشيوعي

فألقى في السجن . واستقامت للغلام الأسود أموره حتى طمع في أكثر مما بلغ .  
ويجب أن نلاحظ أن هذا الغلام لم يكذب يدفع الخوف عن نفسه ويزيل  
أثر الجريمة حتى رضى عن كل ما فعل ، وأحس أن الجريمة قد كشفت له عن  
شخصيته وردت إليه حريته وأتاح له وجوداً لم يعرفه من قبل ؛ فهو قد قتل  
فتاة بيضاء وحرقت جسمها في النار ، وروع بها أبويها ، ودفع قتي أبيض بريئاً  
إلى السجن ، وأخذ ما كانت الفتاة تحمل في حقيبة يدها من مال ، وهو مع  
هذا كله مطمئن يذهب ويحجى ويأكل ويشرب وينام . هو إذن حر ، وهو إذن  
سيد نفسه ، وهو إذن موجود على نحو ما يقول أصحاب الفلسفة الوجودية ،  
وهو إذن محتمل تبعه كل ما أتى وكل ما يأتي من الأعمال . قد كان شخصيته  
مغمورة ، وكانت قوته وحيلته ومهارته مغمورة مع هذه الشخصية . فالآن  
وقد كشفت له الجريمة عن نفسه وعن قدرته وعن حيلته فهو يستطيع أن يصنع  
أكثر مما صنع وأن يقدم على أكثر مما أقدم عليه . وما يمنعه أن يزور كتاباً  
إلى الأسرة ينبئها فيه بأن الفتاة مخطوفة أسيرة عند خاطفها ، وبأن من الممكن  
أن ترد إلى أهلها إذا وضعوا مقداراً من المال في مكان ما ؟ وما يمنعه إذا وضع  
هذا المقدار من المال في المكان الذي اختاره أن يأخذه وينفي به نفسه من الأرض  
إلى حيث يعيش آمناً حراً مستمتعاً بشخصيته وقوته وذكائه وحيلته ؟ ولكنه  
في حاجة إلى شريك يعينه على إتمام هذا الكيد ، وهذا الشريك قريب منه  
وهو خليلته السوداء التي شاركته في بعض الجرائم ، والتي وصلت أسبابها  
بأسبابه في الخير والشر جميعاً . فهو يسعى إلى هذه الفتاة السوداء ويأخذها  
بما تعود أن يأخذها به من الحب والعبث والسكر ثم يظهرها على بعض  
الأمر لا على الأمر كله ، ثم ينبئها بما دبر من حيلة ليحتاز عشرة آلاف من  
الدولارات . والفتاة تأتي وتلح في الإباء ، وتخوفه العاقبة . ولكنه يرغبها  
ويرهبها ويلهبها ويسقيها حتى تظهر له الطاعة ، وإذا هو يكتب الكتاب ويحمله  
إلى الدار ويلقيه من وراء الباب ، ويسرع إلى غرفته ينتظر فيها الأحداث .  
وما هي إلا ساعات حتى يرى نفسه في أدنى الدار أمام الوقد ، وقد أقبلت جماعات  
الصحفيين الذين يريدون أن يعرفوا تفصيل ما ذاع من أبناء هذه الفتاة . وهم  
يسألون ويلحون في السؤال ، والفتى الأسود قائم أمامهم كأنه لا يعرف من  
الأمر أكثر من أنه رد الفتاة وصاحبها الأبيض إلى الدار حين تقدم الليل ،

وهما ثملان ، والقوم مقتنعون بأن هذه الجريمة الغامضة أثر من آثار الشيوعيين . ولكن صاحب الدار يقبل فيني هؤلاء الصحفيين بأنه تلقى كتاباً يحذثه بأن ابنته أسيرة ، وبأن عليه أن يقتديها بالمال ، ثم يلبسهم بأنه سيدفع هذه الفدية . ثم يتقدم إليهم في أن يختاطوا فيما ينشرون في صحفهم حتى لا يفسدوا عليه الأمر ، فهو لا يريد إلا أن يجد ابنته .

وفي أثناء ذلك تقدم الخادم وقد حملت أقدم القهوة إلى الصحفيين وتطلب إلى السائق أن ينظف الموقد ، فقد تراكم فيه الرماد حتى كادت النار أن تتخذ ، وكان الغلام الأسود سعيداً لما سمع من حديث صاحب الدار ، فسيوئع المال في المكان المختار إذن ، وستأخذه خليلته السوداء ، وسيلقاها بعد ذلك ويفر معها من هذه الأرض ليس بينه وبين الثراء والحرية إلا ساعة أو بعض ساعة . ولكن هذا الأمر الذي صدر إليه بتنظيف الموقد يملاً قلبه روعاً . فما عسى أن يكون في الموقد؟ وكيف السبيل إلى تنظيفه بمشهد من هذه الجماعة من الصحفيين ؛ وهو يتردد ثم يتثاقل ، ولكن النار قد أخذت تتخذ وأخذ الدخان يتكاثف ، ويفسد على الصحفيين قهوتهم ، فيتقدم الفتى ويفتح الموقد ويهم ، ولكن يده لا تطيعه ، وإذا هو واجم لا يصنع أو لا يكاد يصنع شيئاً . فيهنض أحد الصحفيين ويأخذ المسحاة من يده ، ويحرك هذا الرماد ثم يحرق فيه ، ثم يدعو زملاءه ثم يأخذون جميعاً في التحديق ، والغلام الأسود يسمع وكأنه لا يسمع ويرى وكأنه لا يرى ، ويرجع أدراجه في رفق كأنما يخلى بين الصحفيين وبين الموقد ، ثم ينسل من الدار ولم يشعر به أحد وقد انهارت آماله كلها انهياراً ، وعاد الخوف إليه كهيئته حين قتل الفتاة وأسلم جثتها إلى النار . فقد استكشف الصحفيون في رماد الموقد عظام ، واستكشفوا الفأس التي أبين به الرأس ، واستكشفوا بعض الحلى الذي كانت الفتاة تحمله . لم يبق للغلام الأسود إلا الهرب . ولكن كيف السبيل إلى الهرب ومن ورائه شريكته تلك التي ستؤخذ وتسأل وترهق حتى تشهد عليه . فليتحفف من هذه الشريكة وقد فعل ، فسعى إليها وأنبأها بأمره كله ، واقتادها من بيتها تحت الليل إلى دار من هذه الدور الخالية التي تنتظر المستأجرين ، وفي هذه الدار خوفها وألهاها وسقاها حتى نامت ، ثم عمد إلى لبنة فما زال يضرب بها رأسها حتى شدخه واستيقن أن الفتاة قد ماتت ، فألقاها من النافذة وسقط جسمها في فناء الدار .

ووجد مع ذلك وسيلة إلى أن يخرج ويشتري صحيفة ويعلم منها أن الشرطة تبحث عنه وتدل عليه بصورته ، وتحاصر أحياء السود ، وتلقى بكثير منهم في السجون ، وأن الطرق المؤدية إلى المدينة قد أخذت على الخارجين منها والداخلين فيها ، فلن يستطيع من المدينة خروجاً . وهو إذن يحاول أن يستخفي دون أن يخرج من المدينة ودون أن يترك هذه الدور الخالية . ولكن هذه الدور تفتش داراً بعد دار ، وقد دخلت الشرطة الدار التي يختبئ فيها ، فيصعد إلى السطح ، وما تزال الشرطة به تطارده من مكان إلى مكان وهو يطاولها ويراوغها ثم يواجهها بالسدس ، ولكنه يؤخذ آخر الأمر بعد خطوب عرضها الكاتب أبرع عرض وأروع . وهو على كل حال قد أخذ . والغريب أنه مشفق من الموت ، ولكنه لا يحس ندماً على شئ مما قدمت يدها .

وقد ظهرت براءة الفتى الشيوعي الذي تجنى عليه هذا الغلام الأسود ، فردت إليه حريته ، وأقبل ذات يوم مع محام شيوعي على هذا الغلام في سجنه ينبئه بأن صديقه المحامي قد تطوع بالدفاع عنه ، وبالدفاع عنه مخلصاً مؤمناً بأنه يدافع عن الحق الذي لا شك فيه .

والمدينة كلها ثائرة تريد رأس هذا المجرم . وليست الثورة مقصورة على البيض الذين وقع الاعتداء على فتاة من فتياتهم ، وإنما السود يشاركون أيضاً في هذه الثورة ؛ لأن المجرم قد عرضهم لسخط البيض وانقامهم وأذاهم التصل ؛ فهم يريدون رأس هذا الفتى الذي أيقظ الشر وقد كان نائماً ، وجر عليهم عذاباً كان قد كف عنهم منذ حين .

وما أريد أن أخلص خير ما في هذا الكتاب ، وهو تصوير حياة هذا الغلام الأسود في سجنه ، وموقفه أمام قاضي التحقيق ثم أمام القضاة ، ولا أن أخلص موقف النيابة منه ، ومن القضاء ، ومن المحامي الذي تكلف الدفاع عنه ، ولا أن أخلص موقف الجماعات التي كانت تزدهم حول السجن لتقتل الفتى حين يخرج منه ، أو حول المحكمة لتقتل الفتى حين يصل إليها ، حتى كانت الشرطة تجرد في حمايته من هذه الجماعة أعظم المشقة وأثقل الجهد .

وإنما أكتفي بتلخيص النظرية التي اعتمد عليها المحامي في الدفاع عن هذا المجرم ؛ فهو لم ينكر الجريمة ، ولم ينكر استحقاق المجرم للموت ، ولكنه طلب إلى القضاة أن يتعمقوا الظروف التي حملت هذا الغلام على اقتراف جريمته أو

جريمته . فهذه الظروف ليست جديدة ولا طارئة ، وإنما هي قديمة وهي متصلة أدق الاتصال وأوثقه بهذه الصلة القائمة بين حياة السود والبيض : قوم يستعلون ويستكبرون ويعسفون ويخسفون ، وقوم آخرون يخضعون لهذا الاستعلاء والاستكبار ، ويدوقون ألوان الذل والهوان ، ويحاولون أن يخرجوا من ذلك إلى شئ من الأمن والدعة ، فيرى البيض في محاولتهم هذه جموحاً وعدواناً ويردونهم إلى حياتهم البغيضة أعنف الرد وأثقله . لقد حاول هذا الفتى أن يخرج من طوره هذا المنكر ، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً : طمع في أن يعمل في الأسطول فعلم أنه لن يعمل فيه إلا خادماً ، وطمع في أن يعمل في الجيش فعلم أنه لن يعمل فيه إلا خادماً ، وفكر في أن يعمل في السلاح الجوي فعلم أن لا أمل للسود في هذا السلاح ، وهمّ بأعمال أخرى فرد عنها في عنف كما رد عن هذه الأعمال ؛ فاضطر إلى حياته تلك الفارغة إلا من الموحدة والحقد وانتهاز الفرصة لاقتراف الآثام . هو وأمثاله من السود خائفون من البيض يتربصون بهم الدوائر وينتظرون بهم المكروه . والبيض خائفون منهم يسكونهم في حياتهم هذه المنكرة ويسرفون عليهم في الإذلال ، ويرون الشر كل الشر والنكر كل النكر في كل ما يصدر عنهم من عمل . وما دام الخوف هو أساس الحياة وقوام الصلات بين السود والبيض فلن يتمتع ارتكاب الجرائم ولا اقتراف الآثام . وموت هذا الفتى إن قضى عليه بالموت لن يمنع من أن ينشأ فتيان آخرون أمثاله يملأون قلوب البيض روعاً وجزعاً ، وينتهزون الفرص ليقتلوا ويسرقوا ويملاؤوا الأرض شرّاً . فإذا لم يكن بد من عقاب هذا الفتى ، فليمسك في السجن إلى أن يموت ، مع أن عقابه لن يغير من الأمر شيئاً ، وإنما الذي يغير الأمر هو أن تصلح الحياة الأمريكية وتقام الصلات بين الأمريكيين ، مهما تختلف ألوانهم ، على نظام من العدل والمساواة . وواضح أن القضية قد سمعوا لهذا الكلام ، وقضوا على الفتى بالموت . وواضح كذلك أن المحامي قد التمس تخفيف العقوبة من الحاكم فلم يظفر بشئ . ولكن أوضح من هذا رذاك أن الكاتب قد استطاع بصدق لمحتته من جهة ، وبراعته الفنية من جهة أخرى ، وبدقة تصويره للحقائق من جهة ثالثة ، أن يملأ نفس القارئ بغضباً لهذا المجرم في الشطر الأول من كتابه ورحمة له ولأمثاله في الشطر الأخير من كتابه ، وأن ينقلك في رفق رفيق من منزلة البغض التي ليس بعدها بغض إلى منزلة الرثاء الذي ليس بعده رثاء .

وأنت بعد هذا كله تقرأ هذين الكتابين ، فما أسرع ما تنغمس مع الكاتب في الحياة الأمريكية حتى كأنك تحياها مع أصحابها لا أنك تقرأ أبناءها وصورها في كتاب !

أتظنني أسرف حين أتى على هذين الكتابين ، وحين أتمنى على الذين يحسنون الإنجليزية ، أن يتحوا قراءتهما للذين لا يحسنون هذه اللغة من الشرقيين ؟

فيك سور سير ، ٣ سبتمبر ١٩٤٧